

الفصل الثاني

مرويات اللغويين ورواة الشعر

ولالإحسان نصيب في مرويات أهل اللغة على الرغم من أخذهم أنفسهم بالشدّة والدقة في الاحتياط لمروياتهم من أن تَبَدُّ عن مقياسهم في رواية الشعر التي تدور حول الأعصار دون الأشعار والبداءة دون الحاضرة والطبع لا الصنعة غالباً^(١).

فأبو عمرو بن العلاء يجد تميزاً في قصيدة المُنثَب العبدى التي مطلعها:
أفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَّعِينِي^(٢) وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُ كَأَنْ تَبِينِي

فهو يستجديها، وكان يدل على الإحسان فيها بقوله: «لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه»^(٣) وتمام القصيدة^(٤):

فَلا تَعِدِّي مَوَاعِدَ كاذِبَاتٍ تَمُرُّ بِهَا رِيَّاحُ الصَّيْفِ دُونِي^(٥)
فإنِّي لو تُخَالَفَنِي شمالي خَلَافُكَ ما وَصَلْتُ بِها يَمِينِي
إِذَا لَقَطَعْتُها وَلَقُلْتُ بَيْنِي كَذَلِكَ اجْتَوَى مَنْ يَجْتَوِينِي^(٦)

(١) د. محمد عبد: الرواية والاستشهاد باللغة ص ٣٣.

(٢) المتاع هنا: وداعها إياه وتسليمها عليه، أو عدتها له.

(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١/٣٩٥ وخزانة الأدب ٤/٤٣١.

(٤) المُنثَب العبدى: ديوانه تحقيق حسن كامل الصيرفي ص ٨٧-٩٢ والمفضليات ٢/٨٧-٩٢.

(٥) خص رباح الصيف لأنها لا خير فيها، إذ تحمل الغبار والمعجاج وما أشبه.

(٦) الاجتواء: ألا يستمرىء البلاد، لعدم موافقتها له.

لِمَنْ طُعُنَ تُطَالِعُ مِنْ ضَبِيبٍ
مَرَزَنَ عَلَى شَرَافٍ فَذَاتِ رَجُلٍ
وَهُنَّ كَذَاكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلَجًا
يُشْبِهَنَّ السَّفِينِ وَهُنَّ بُخْتُ
وَهُنَّ عَلَى الرَّجَائِزِ وَإِكْنَاتُ
كَغَزْلَانٍ خَذَلْنَ بِذَاتِ ضَالٍ
ظَهَرْنَ بِكَلَّةٍ وَسَدَلْنَ أُخْرَى
وَهُنَّ عَلَى الظَّلَامِ مُطَلَبَاتُ
أَزَيْنَ مُحَاسِنًا وَكَنَّنَ أُخْرَى
وَمِنْ ذَهَبٍ يَلُوحُ عَلَى تَرِيبٍ

(١) الطعن: الهودج، ثم سميت النساء به لوجودهن فيه، وخبيب: موضع، ولجين: يقصد الإبطاء في السير.

(٢) شراف وذات هجل والذرائح: مواقع في البحرين وقيل في الأحساء، ونكين: عدلن.

(٣) فلج: اسم بلد، والحمول: المراكب فيها النساء.

(٤) البخت: الإبل الطويلة، وقيل الخراسانية، وفي اللفظ خلاف حول عربيته وأعجميته، والأباهر: الظهور، والشؤون: شعب قبائل الراسي التي تجري منها الدموع إلى العينين.

(٥) الرجائز: جمع رجازة، وهي مركب النساء، واكنات: جالسات مطمئنات، وقواتل كل أشجع: يقتلن كل أشجع، وقيل الأشجع الطويل: أي من تطاول إليهن بالنظر وهن في مركبهن، فيستكين ويخضع.

(٦) خذلن: نافرن عن القطيع، وذات ضال: موضع يكثر فيه الضال، وهو الصدر، وتنوش تتناول.

(٧) الكلة: ستر رقيق يوضع على الهودج للتوقي، وسدلن: أرخين، والرقم: البرود البمانية، والوصاوص: البراقع.

(٨) القرون: جمع قرن، وهي كل صغيرة من صفائر الشعر، والمقصود: أنهم على ظلمهن الرجال يطلبن.

(٩) كَنَّ: أخفين، الأحياد: جمع جيد وهو العنق، الديباح: ثياب من أحسن الحرير.

(١٠) التريب: جمع تربية، وهي عظام الصدر، والعاج: ناب الفيل، والغضون: تشني الجلد.

إِذَا مَا فُتِنَهُ يَوْمًا بِرَهْنٍ يَعْزُّ عَلَيْهِ لَمْ يَرْجِعْ بِحِينٍ^(١)
 بَتْلَهِيَّةٍ أَرِيشُ بِهَا سِهَامِي تَبَذُّ الْمُرَشِقَاتِ مِنَ الْقَطِينِ^(٢)
 عَلَوْنَ رِبَاوَةَ وَهَبَطْنَ غَيْبًا فَلَمْ يَرْجِعْنَ قَائِلَةً لِحِينِ^(٣)
 فَعَلْتُ لِبَعْضِهِنَّ، وَشُدَّ رَحْلِي لَهَا جِرَةٌ نَصَبْتُ لَهَا جَبِينِي^(٤)
 لَعَلَّكَ إِنْ صَرَمْتَ الْحَبْلَ مِنِّي كَذَاكَ أَكُونُ مُصْحَبَتِي قَرُونِي^(٥)
 فَسَلَّ الْهَمُّ عَنْكَ بِذَاتِ لَوْثٍ عُدَافِرَةٌ كَمِطْرَقَةِ الْقَيْوَنِ^(٦)
 بِصَادِقَةِ الْوَجِيفِ كَانَ هِرَاءً يُبَارِيهَا وَيَأْخُذُ بِالْوَضِيِّينِ^(٧)
 كَسَاهَا تَامِكًا قَرْدًا عَلَيْهَا سَوَادِي الرُّضِيحِ مَعَ اللَّجِينِ^(٨)

(١) فتنة : تركته وخلفته، ورهته - ههنا - هواه وقلبه، يقول : إذا صار في أيديهن وملكنه لم يرجع إليه، ولم يتخلص منهن .

(٢) بتلهية : تفعله من اللهو، أي حديث يتلهى به، والمعنى : «أريش حديشي (أجمعه كالسهام المريشة) بما يزين للنساء، فيقع حديشي في قلوبهن متمكناً متمكن السهم إذا ريش». وأراد بالتلهية : محبوته، وتبذ : تسق والمرشقات : التي تمد أعناقها للنظر ويقال معناها الظباء . والقطين : الأتباع والخدم والجيران، وأراد أن محبوته تبذهن بالحسن .

(٣) الرباوة : ما ارتفع من الأرض، والغيب : ما اطمأن منها، والقائلة : القيلولة، والمقصود أي لم يكدن ينزلن للقيلولة .

(٤) الهاجرة : شدة الحر وسط النهار، وعصبت لها جبيني : أي تعصبت بالعمامة لأنقي الحر .

(٥) قروني : نفسه، والصرم : القطيعة، ومصحبي : منقادة لي، والمعنى : إن قطعت الوصل أطعت نفسي وقطعت وصلك .

(٦) ذات لوث : يصف ناقته بالقوة، وعدافرة : الناقة الشديدة الأمينة الظهر الوثيقة، ومطرقة القيون : يشبه ناقته في صلابتها بمطرقة الحدادين .

(٧) الوجيف : ضرب من السير، والوضين : حزام الرجل، يصف ناقته بالنشاط وكثرة التلفت فكان هراً بجانبها يناوشها فتبغي الهرب منه .

(٨) يصف سنامها بأنه تامك : طويل ومتلبد (قرد)، والرضيح : النوى المرضوح أي المكسور واللجين : ما تلجن أي تلتزج (صار لزجاً) من علف وورق وبزر .

إِذَا قَلَقْتُ أَشُدُّ لَهَا سِنَافاً
 كَأَنَّ مَوَاقِعَ الثُّفِنَاتِ مِنْهَا
 يَجِدُ تَنْفُسَ الصُّعَدَاءِ مِنْهَا
 تَصُكُّ الْحَالِبِينَ بِمُشْفَتِيرٍ
 كَأَنَّ نَفِيٍّ مَا تَنْفِي يَدَاهَا
 تَسُدُّ بَدَائِمَ الْخَطَرَانِ جُثْلٍ
 وَتَسْمَعُ لِلذَّبَابِ إِذَا تَغْنَى
 فَأَلْقَيْتُ الزَّمَامَ لَهَا فَنَامَتْ
 كَأَنَّ مُنَاحَهَا مُلْقَى لِجَامٍ

- (١) السناف: الحبل الدقيق يشد من المنحر إلى الحزام، والزور: الصدر، والوضين: الحزام.
- (٢) الثفنات: جمع ثفنة وهي الركبة من البعير أو الناقة، والمُعْرَس: موضع التعريس وهو النزول آخر الليل أو أوله. وباكرات الورد جون: يعني القطا الأسود الذي يرد الماء، وهو يصف آثار مبرك ناقته كأثار القطا.
- (٣) يجذ: يقطع، وقوي النسع: السير القوي، والمُحْرَم: المدبوغ فلم يُلَيْن، وذو المتون، ذو القوى. ويريد أنها إذا تنفست أو زفرت قطعت النسع.
- (٤) تصك: ترمي، الحالبان: عرقان يكتنفان السرة، المُشْفَتِير: المتفرق ويعني الحصى، أراد أنها ترح بالحصى في سيرها فتصك به حاليتها أو جانبها على رواية (الجانبين).
- (٥) النفي: القذف، والمعين: الأجير المستعان به. شبه ما تنفي يداها من الحصى بحجارة تقذف بها ناقة غريبة أتت حوضاً لتشرب منه فرميت.
- (٦) دائم الخطران: يريد ذنبها في حركته، والجثل: الكثير الشعر، والمقلات: التي لا تلتفح إلا بطيئاً، والدهين قليلة اللبن، يعني: أنها تملأ ما بين قوائمها بذنب ضاف متصل بالحركة.
- (٧) الذباب: صوت أسنان البعير إذا صرقت أنيابها، والوكون: جمع وكن وهو عرش الطائر.
- (٨) السدف: النهار، أو الضوء وهو من الأضداد: الليل أو النهار. والمبين: البين.
- (٩) المناخ: الموضع الذي تناخ فيه الإبل، والمعزاء: الأرض الكثيرة الحصى، والوجين: ما غلظ من الأرض. شبه مواقع ركبتها وكركرتها بمواقع اللجام إذا ألقى على الأرض.

كَأَنَّ الْكُورَ وَالْأَنْسَاعَ مِنْهَا عَلَى قَرَوَاءَ مَاهِرَةً دَهِينٍ^(١)
 يَشُقُّ الْمَاءَ جُوجُؤُهَا وَيَعْلُو غَوَارِبَ كُلِّ ذِي حَدَبٍ بَطِينٍ^(٢)
 غَدَّتْ قَوْدَاءَ مُنْشَقًّا نَسَاهَا تَجَاسَرَ بِالنُّخَاعِ وَبِالسَّوْتَيْنِ^(٣)
 إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بَلِيلٍ تَأَوُّهُ آهَةٌ الرَّجُلِ الْحَزِينِ
 تَقُولُ إِذَا دَرَأَتْ لَهَا وَضِيئِي أَهَذَا دِينُهُ أَبْدَأُ وَدِينِي^(٤)
 أَكَلُ الدَّهْرَ جِلٌّ وَارْتِحَالٌ أَمَا يُبْقِي عَلَيَّ وَمَا يُقِينِي
 فَأَبْقَى بَاطِلِي وَالْجِدُّ مِنْهَا كَذُّكَانِ الدَّرَابِنَةِ الْمَطِينِ^(٥)
 ثَنَيْتُ زِمَامَهَا وَوَضَعْتُ رَحْلِي وَنُمرُقَةً رَفَدْتُ بِهَا يَمِينِي^(٦)
 فَرُخْتُ بِهَا تُعَارِضُ مُسَبِّطَرًا عَلَى صَحْصَاحِهِ وَعَلَى الْمَتُونِ^(٧)
 إِلَى عَمْرٍو وَمِنْ عَمْرٍو أَتَنِي أَخِي النَّجْدَاتِ وَالْحِلْمِ الرَّصِينِ
 فِيمَا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِحَقِّي فَأَعْرِفُ مِنْكَ غَثِّي أَوْ سَمِينِي
 وَإِلَّا فَاطْرِحْنِي وَأَتَّخِذْنِي عَدُوًّا أَتَّقِيكَ وَتَتَّقِينِي

- (١) الكور: الرحل، والأنساع: جمع نسع، وهو سير تشد به الرجال، والقرواء: سفينة طويلة القرا وهو الظهر، وماهرة: سابحة، ودهين: مدهونة.
- (٢) الجوجؤ: الصدر، وغوارب الماء: أعاليه، وهي الأمواج، والحذب: ارتفاع الموج، والبطين: الواسع.
- (٣) القوداء: الطويلة العنق، النسا: عرق في الفخذ يظهر إذا سمنت الناقة. تجاسر: تظهر والنخاع: عرق في العنق متصل بالدماغ والجسم.
- (٤) درأت: شددت ومددت، والوضين: بمنزلة الحزام، والدين: الدأب والعادة.
- (٥) الباطل: اللهو والغزل والصيد، والجذ: الركوب في الغارات والمعالي، ودكان الدرابنة: دكان البوابين، أي أنها قوية ضخمة وإن أتعبها في لهوه وجده.
- (٦) نني الزمام: جذبه، والنمرقة: الوسادة.
- (٧) تعارض: تباري وتحاكي، والمسبطر: الطريق الممتد، والصحصاح: ما استوى من الأرض، والمتون: ما غلظ منها وصلب.

وما أدري إذا يَمُمْتُ أُمراً أريدُ الخَيْرَ أيُّهما يُلِينِي
أَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَتَغَيَّنِي

وهذه القصيدة ليست غريبة ولا متفردة عن القصيدة الجاهلية في بنائها الفني العام، من حيث ذكر المرأة، ووصف الظعن، وتصوير الراحلة وعناء الرحلة، والتوقف أخيراً عند غاية الرحلة في المحطة الأخيرة.

فقد بدأ المثقب العبدى قصيدته بمحاورة سريعة مع صاحبه وطلب منها أن تمتعه قبل رحيلها بحديث أو وعد، وأبان عن خلقه الذي يجازي على القطيعة بمثلها، ثم وصف ظعن محبوبته وتتبع سيرها، وانعطف من خلال ذلك إلى حديث عن النساء في هوادجهن، وانتقل بعد ذلك إلى ناقته التي يسلي بها همه، فأفاض في وصفها؛ فعرض لشدها، وسرعتها وضخامتها، وقوة زفيرها، وأثر أخفافها على الأرض، وذيلها من حيث طوله وكثافة شعره، وصوت أنيابها المطرب عند الأكل، ونومها، ومناخها، وأبان عن إجهاده لها بطول السير والسفر، وأن لهوه وجدته لم يبق منها إلا هيكلًا ضخمًا، ووصل أخيراً إلى عمرو بن هند الذي خيره بين الصداقة أو العداوة، ثم أنهى ذلك كله بالإقرار بضعف الإنسان أمام الغيب والقدر.

لكن ما يميز هذه القصيدة أنها لون متفرد لشخصية ذات رؤية فكرية ونفسية في الحياة الجاهلية، إذ تطرح خلقاً تربوياً من خلال مواقف سلوكية بعيداً عن النمط التقريري المتكرر في الإبانة عن الخلق المثال من الصبر، والعفة، والكرم، والشجاعة، وحماية الجار وما إلى ذلك مما جاء من قيم اجتماعية في الشعر الجاهلي.

يعرض المثقب العبدى أسلوباً في التعامل الإنساني أساسه الصدق والصراحة والوضوح، لأنه الطريق الذي تستقيم فيه العلاقات البشرية، وتصفو الحياة به وتحلو؛ فلا خداع في حب، ولا مداراة لكره، ولا مصانعة لقوي، ولا مداهنة لعدو.

وتنبىء شخصيته عن ثبات في التزام ذلك في مواقف الحياة ومع أجناس الناس فيها، بمستوياتهم المختلفة والمتباينة، فقد أبدى صرامة وحزماً في حوار مع صاحبه

إذ ضرب لها مثلاً إذا أصرت على موقفها من البين دون الحديث معه بقوله: «لو خالفتني شمالي كمخالفتك لقطعتها وأفردت يميني منها»، وبالجزم الصارم نفسه كان حواراً مع عمرو بن هند:

فإما أن تكون أخي بحق فأعرف منك غثي أو سميني
وإلا فاطرحني واتخذني عدواً أتقسيك وتتقيني

ولهذه اللهجة الحادة في الخطاب شك الأصمعي في أن يكون المخاطب بالأبيات عمرو بن هند الملك فقال: «وأراه غير الملك، لأنه لم يكن ليخاطبه بمثل هذا الكلام»^(١). وسواء أكان مقصود المثقب العبدي عمرو بن هند الملك، أو رجلاً آخر من أهله وعشيرته كما ذهب إلى ذلك بعض الشُّراح^(٢)، فإن التوحد بين مطلع القصيدة ومقطعها واضح الدلالة على اطراد هذا الخلق والتزامه به منهجاً في طلب الوفاء . . .

وحمل التوحد بين طرفي القصيدة إلى استجداتهما دون باقي بناء القصيدة، فابن قتيبة يردف مقولة أبي عمرو بن العلاء في تمنى أن يكون الشعر مثلها بقوله: «وفيها يقول:

أفاطم قبل بينك متعيني ومنعك ما سألتك أن تبيني
ولا تعدي مواعد كاذبات تمر بها رياح الصيف دوني
فإني لو تعاندي شمالي عنادك ما وصلت بها يميني
إذا لقطعتها ولقلت بيني كذلك اجتوي من يجتويني
فإما أن تكون أخي بحق فأعرف منك غثي من سميني
. . . الأبيات إلى نهاية القصيدة^(٣).

وإراداف ابن قتيبة مقولة أبي عمرو بهذه الأبيات يوميء إلى أن مقصود أبي عمرو

(١) حسن كامل الصيرفي: حاشية تحقيق ديوان المثقب العبدي ص ٢٠٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٩.

(٣) انظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١ / ٣٩٥-٣٩٦.

منصرف إلى هذه الأبيات خاصة دون باقي القصيدة، ويرشح هذا الفهم أن ابن طباطبا وافق ابن قتيبة في هذا الفهم فجعل هذه الأبيات مما تجب روايته والتكثّر لحفظه^(١).

وعلى الرغم من وضوح الخلق القويم في هذه الأبيات، خاصة صدق الإقرار بالضعف والعجز أمام قوة الغيب الكبرى في توجيه الإنسان وتسييره في قوله:

فما أدري إذا يمت أرضاً أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

فإن من الظلم أن تقيد رؤية أبي عمرو بن العلاء النقدية في هذه الأبيات دون تمام القصيدة؛ لأن الوحدة التركيبية للقصيدة نفسياً وفكرياً وأداءً لغوياً تمنح أجزاء القصيدة الأخرى معالم جمالية ذات قيمة عالية في شرعية الانتماء إلى ملاحظة أبي عمرو بن العلاء وليس التجافي عنها.

ولا ينكر الباحث أن في باقي القصيدة فناً متميزاً من وصف الظعن والرحلة والناقة مما تداوله الشعراء الجاهليون، مثل تشبيه الإبل بالسفينة «يشبهن السفينة وهن بخت» أو تشبيه النساء بالغزلان «كغزلان خذلن بذات ضال» أو تسلية الهموم بركوب الإبل «فسل الهم عنك بذات لوث» أو تشبيه ناقته في صلابتها بمطرقة الحدادين «عذافرة كمطرقة القيون» ووصفها كذلك بكثرة التلفت والنشاط «كأن هراً يباريها ويأخذ بالوضين» أو بطول الذنب أو طول الظهر أو عظم الهيكل، أو ما إلى ذلك من نعوت وصور شاعت في بيئة الشعراء آنذاك فانفعلوا بها.

غير أن أخذه نفسه بالشدّة، وتعهدّه لسلكه بالأنفة والعزّة، ظل مرعيّاً في القصيدة مع ما يفرضه هذا الخلق من عفة وصدق. فقد نعت النساء في هوادجهن نعتاً لعله أطول وأمتع ما قيل في الظعن^(٢)، إذ اقتصد في نعتهن ولم يسرف، وأبان عن الجمال

(١) انظر: ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٦٣.

(٢) أحمد محمود شاكر وعبد السلام هارون: (حاشية التحقيق) المفضليات ج ٨٧/٢.

والْحُسْنُ دون أن يسف، فلم يجاوز صفة الغزلان في جمال الأعين، ودقة الأجسام،
وخفة الحركة والنشاط، والستر بالبراقع المثقبة للعيون، ويزيد بياض نحورهن جمالاً
ما يلوح عليه من ذهب تقلدنه، وقدم ذلك كله على سبيل العموم، ثم خص المرأة
المرادة (محبوبته) بالحسن دونهن في كل ذلك .

وبالصدق ذاته كان إقرار المثقب الكاشف لطبيعة الميل الإنساني إلى النساء،
من غير مكابرة في مجافاتهن، أو مداراة لاعتزالهن، فعلى الرغم من الصرامة في
معاملتهن، والشجاعة في الانتصار للرجولة منهن، إلا أنهن غالبات مرغوبات على
غلبتهن وظلمهن :

وهن على الرجائز واكنات قوائل كل أشجع مستكين
وهن على الظلام مطلبات طويلات الذوائب والقرون

وبأتلف وصف الرحلة والراحلة مع الخلق المتميز به المثقب العبدى، حيث
ضَمَّن الارتحال غاية ثنائية في الطلب، فقد ركب تسرية لحب غير متكافئ، الوفاء،
وتجلية لتوازن المودة في الإخاء .

وبالحدة ذاتها كان سلوك الشاعر ومعاملته مع ناقته، فهو لا يترك لها فسحة من
الوقت من غير رحيل، ومع ذلك فهي مطردة القوة والنفاذ والعزم، وهو بذلك إنما يعطي
الناقاة صورة نفسه بصدقها وشدتها :

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه أهة الرجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضيني أهذا دينه أبداً وديني
أكل الدهر حل وارتحال أما يبقي علي وما يقيني
فأبقي باطلاي والجدمنها كدكان الدراينة المطين

وينتهي الشاعر من رحلته وغايته عند عمرو بن هند ليعود لنقطة انطلاق القصيدة،
بعد أن جعل الرحلة محط الارتكاز فيها، قائمة على تجسيد القوة والقدرة والشدة، غير
أنه يمدّ طلق النهاية بمفاجأة فيها انقلاب في الإحساس ونبرة التعبير عنه، فإذا

الإحساس الطاعغي الحدة، العالي النبرة، تخفت حدته، وتلين لغته، وذلك لأن الشاعر أبدى ضعفه واستكانته أمام الغيب والقدر في انتصار الخير أو الشر في مراد الإنسان ومقصوده، وهو بذلك إنما يعبر تعبيراً صادقاً عن جهل الإنسان لنتاج سعيه، وعجزه عن إدراك بغيته؛ لأن القدر فيه العلم، وعليه المآل، وأنى للإنسان باستكناه خبره ومكنون سره؟

وهكذا جاء الانقلاب مفارقة عمقت في القصيدة أبعاداً فكرية وفنية، فهي ترسخ التصور الخلفي للإنسان في قوته وضعفه؛ قوته في القصد والسعي والطلب، وعجزه عن اكتشاف مآل ذلك وإدراكه بدءاً.

وعززت هذه المفارقة الإحساس بالحزن كذلك، إذ بين تنامي الاعتداد بالنفس وتراجعها، تبلور هذه العاطفة؛ لأن التوازي بين تمكن الحال وعدمه يثير الإشفاق والحزن الذي من شأنه أن يعزز المشاركة، ويمكن الممازجة في القصيدة، قوة وضعفاً، وحدة وليناً، ونبرة عالية، وإيقاعاً خافئاً هامساً.

فلعل لذلك كله، كانت وصية أبي عمرو بن العلاء بهذه القصيدة نموذجاً للفن والإمتاع والخلق!

* * *

ومن قصائد عدي بن زيد العبادي^(١) الأربع الغرر الروائع المبرزات^(٢) انتخب يونس بن حبيب أحد أعلام المدرسة البصرية في الرواية قصيدة متميزة الجودة

(١) عدي بن زيد شاعر فصيح من شعراء الجاهلية، كان نصرانياً، كذلك كان أبوه وأمه وأهله، جعله ابن سلام في فحول الطبقة الرابعة، وكان يسكن الحيرة ويراكن الريف، وسأل الأصمعي أبا عمرو بن العلاء عنه فقال: «كسهيل في النجوم يعارضها ولا يدخل فيها» أي أنه يُشَبَّه بها، ويقعد به عن شأوها الفاظه الحيرية، وأنها ليست بنجدية، ولم يعده الأصمعي فحلاً كذلك، وعلماء اللغة لا يرون شعره حجة، وكانت العرب لا تروي شعره. (انظر الموشح ١٠٢-١٠٣ والشعر والشعراء ١/٢٢٥، ٢٣٠).

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ج ١/١٤٠.

والإحسان، «قال ابن سلام: سمعت يونس وقد تمثل بهذا البيت:

أيها الشامتُ المعيرُ بالذهر سرُّ أُنْتِ المُبرِّأُ الموفور
أم لديك العَهْدُ الوثيقُ من الأيب أم؟ بل أنت جاهل مغرور

فقال: لو تمنيت أن أقول شعراً ما تمنيت إلا هذه، أو قال: مثل هذه»^(١).

وتمام القصيدة^(٢):

أرواحٌ مُودَّعٌ أم بُكورُ لك فاعلمْ لأيِّ حالٍ تصيرُ^(٣)
إنَّ شغلَ الصَّابياتِ من الأَسْرِ تارِ ظَرْفٍ يُضبي وفيه فتورُ
زانهُنَّ الشُّفوفُ يَنْهَزنَ بالـ ضُبْحِ وَعَيْشِ مَفانِقٍ وَحَرِيرُ^(٤)
كُدِّمى العاجِ في المحارِبِ أو كا لَبِيضِ فِي الرُّوضِ زَهْرُهُ مُسْتَنيرُ^(٥)
لا تُؤاتِيكَ إنَّ صَحَوْتُ وإنَّ أَشَدَّ رَقِّ فِي العارِضِينَ مِنْكَ القَتيرُ^(٦)
وإبيضاضُ السوادِ من نُذْرِ الشِّدِّ رٌ وهل بَعْدَهُ لِأَنسٍ نَذيرُ
وَسَطُهُ كاليراعِ أو سُرجِ المِجْدِ دَلِ حيناً يَخْبو وحيناً يُنيرُ^(٧)
مِثْلَ نارِ الحَرَّاضِ يَجْلُو ذَرَى المُرِّ نِ لِمَنْ شاقَهُ إذا يَسْتَطيرُ^(٨)
زَجَلٌ عَجْزُهُ يُجاوِهُ دُفُّ لُخونِ مَأدِوبَةٍ وَزَميرُ^(٩)

(١) المصدر نفسه ج ١/١٤١.

(٢) عدي بن زيد: ديوانه جمع وتحقيق محمد جبار المعبيد ص ٨٤-٩٢.

(٣) «يريد: أرواح نودعك فيه أو بكور؟ أيهما تريد؟ فاعمد للذي تصير إليه من أمر آخرتك» أغاني

١٥٢/٢.

(٤) الشفوف: جمع شف: وهو الثوب الرقيق، ونهز: نهض، وعيش مغانق: مُنعم.

(٥) أشرق الشيب: انتشر وكثر، والعارضان: جانب اللحية، والقثير: الشيب أو أول ما يظهر منه.

(٦) اليراع: ذباب يطير في الليل كأنه نار، المجدل: القصر.

(٧) الحراض: الذي يحرق الجص ويوقد عليه النار، المزن: جمع مزنة: وهو السحاب، وشام

البرق: نظر إليه.

(٨) الرُّجَل: الطرب ورفع الصوت باللعب، والخون: جمع خوان، وهو ما يؤكل عليه الطعام، =

فَتَنَايَا بِالرِّيِّ بَعْدُ وَفِي الْجَنِّ
فَسَقَى الْبَطْنَ فَالْبَسِيطَةَ فَالْحِرَّ
فَاسْتَدْرَتْ بِهِ الْجَنُوبُ عَلَى الْحِرِّ
لَمْ أَغْمَضْ بِهِ وَشَأْنِي بِهِ مَا
بَلْ عَنَانِي قَوْلَ امْرِيءٍ لَمْ يَقُلْ فِيهِ
وَحَبِيٌّ بَعْدَ الْهَدُوِّ تُزَجِّجِي
مَرِحٌ وَنَلُّهُ يَسُحُّ سَيُولُ السِّدَّ
[ليت شعري كيف أنت إذا ما
رَحِمَ اللهُ مَنْ بَكَى لِلخَطَايَا
أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيِّرُ بِالْ
أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الدَّ

= والمأدوبة المأدبة التي يُدعى إليها الناس. شبه صدى الرعد في السحاب الطرب بقرع الدف عند أهل عرس يدعون لمأدبة أو فرح.

(١) الرِّيُّ: بلدة والحنونين بلد كذلك، وحطت به العير: يقصد أن الريح ساقته إلى هذه الأماكن. والعير: قافلة الحمير، وأطلقت على كل قافلة.

(٢) البطن والبيطة والحرنين: أسماء أماكن، يهدي لوجهه ويحور: أي يأتيها الماء فيدور فيها ويجمع.

(٣) استدرت به الجنوب: استحلبته ريح الجنوب، والحرنة: قرية باليمامة.

(٤) شأنني الشيء شأنًا: احزنتني وشاقني.

(٥) الحبي: السحاب يشرف من الأفق على الأرض، أو الكثيف الذي بعضه فوق بعض، يزجيه: يسوقه، والكسير: الأنواء.

(٦) مرح السحاب: إذا أسبل الماء أو المطر، يسح: ينهمر متتابعًا بغزارة، وكأنه منحور: أي أنه كثير الماء.

(٧) الموفور: الذي لم تصبه نواذب الدهر (الأغاني ١٥٢/٢) وعيرته كذا هو المختار الحسن (شرح الحماسة ١١١/١).

مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونِ خَلْدَنَ أَمْ مَنْ
 أَيْنَ كَسْرَى، كَسْرَى الْمُلُوكِ أُنُو
 وَيُنُو الْأَصْفَرِ الْمُلُوكِ، مَلُوكِ الْ-
 وَأَخُو الْحَضْرَى إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ
 شَادَهُ مَرْمَرًا وَخَلَّهُ كِلْدَ
 لَمْ يَهْبَهُ رَبُّ الْمُنُونِ فَبَادَ الْ-
 وَتَأْمَلْ رَبَّ الْخَوْرَتَقِ إِذْ أَشَدَّ
 سَرَّهُ مَالَهُ وَكَثْرَةَ مَا يَمُ-
 فَارَعَوَى قَلْبَهُ وَقَالَ وَمَا غَبَّ
 ثُمَّ بَعَدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكَ وَال-
 ثُمَّ أَضْحَوْا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَدَّ
 إِنْ يُصْبِنِي بَعْضُ الْأَذَاةِ فَلَإِ
 غَيْرَ أَنَّ الْأَيَّامَ يَغْدُرْنَ بِالْمَرِّ
 فَاصْبِرِ النَّفْسَ لِلْخَطُوبِ فَإِنَّ
 وَأَنَا النَّاصِرُ الْحَقِيقَةَ إِذْ أَظْلَدَ

- (١) كسرى: ملك الفرس مُعَرَّبٌ خسرو أي واسع الملك، وأنو شروان هو كسرى الأول، وسابور ملك الفرس مُعَرَّبٌ شاه بور، وقد أُطلق على عدة ملوك منهم.
- (٢) الحَضْرَى: مدينة بناها الساطرون الملك، وتقع في منخفض من بادية ما بين دجلة والفرات بإزاء تكريت بينها وبين الموصل والفرات. والخابور: من روافد نهر الفرات.
- (٣) الخورنق: قصر للنعمان الأكبر، مُعَرَّبٌ فورنكاه أي موضع الأكل أو الشرب كان بظهر الحيرة، بناه له سمنار.
- (٤) البحر المعروض: الواسع العريض، والسدير أحد قصور النعمان الأكبر اتخذه لبعض ملوك العجم وهو قريب من الخورنق.
- (٥) الفلاح: الفوز والنجاة والبقاء في الخير، والإمة: النعمة.
- (٦) ألوت به: ذهب به، والصبأ: ريح رقيقة، والدبور: ريح تقابل الصبأ، أو إذا تحولت عنها.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الرَّوَاعُ وَلَا
 وَاشْتَرَيْتُ الْجَمَالَ بِالْحَمْدِ إِنَّ
 شَيْعَتَنِي نَعَمَى عَلَيَّ لِمَا وَ
 كَقَصِيرٍ إِذْ لَمْ يَجِدْ غَيْرَ أَنْ جَدَّ
 أَنْتَ مِمَّا لَأَقَيْتَ يُبْطِرُكَ الْأَغْ
 وَتَمَهَّلْتَ فَوْزَةً أُحْرَزْتَ عِرْ
 لَوْ تَحَمَّلْتَ مِثْلَهَا كَطَّلَكَ الْأَمْ
 وَتَقَوَّلَ الْعُدَاةُ أَوْدَى عَدِيَّ
 لَا يَسْخَطُ الْمَلِكُ مَا شَيَّعَ الْعَبْ
 ظَنَّةً شَبَّهَتْ فَأَمْلَكَهَا الْقَسْ
 وَكِلَانَا بَرٌّ يَسَاعِدُهُ بَرٌّ
 يَنْفَعُ إِلَّا الْمُسَيِّعَ النَّحْرِيرُ^(١)
 السُّعْيِي فِيهِ الْإِمْضَاءُ وَالتَّقْدِيرُ
 ثَقُتُ رَبِّي إِنَّ التَّقِيَّ شَكُورُ^(٢)
 عَ أَشْرَافُهُ لِشُكْرِ قَصِيرُ^(٣)
 رَابُّ بِالطُّيْشِ مُعْجَبٌ مَحْبُورُ^(٤)
 ضِيٌّ مِنَ الشُّتْمِ وَالشُّهُودُ كَثِيرُ^(٥)
 رُ وَحَارَتْ بِهِ لَدَيْكَ الْأُمُورُ^(٦)
 وَعَدِيٌّ يَسْخَطُ رَبَّ أَسِيرُ^(٧)
 دُ وَلَا فِي عِقَابِهِ تَنْكِيرُ
 مُمْ فَعَدَاةُ وَالْحَبِيرُ حَبِيرُ^(٨)
 وَرَبِّي لِمَا آتَى مَعْدُورُ^(٩)

(١) الرواع: المراوغة، وهي الميل والحياد عن الشيء. والمُسيِّع: الشجاع كأنه شيع بغيره، أو بقوة قلبه، والنحير: الحاذق الماهر العاقل المجرب المتمقن الفطن البصير بكل شيء؛ لأنه ينحر العلم نحرًا.

(٢) واثق به: عاهده بالطاعة والتقوى.

(٣) قصير: هو قصير بن سعد بن عمرو اللخمي، وكان صاحب رأي ودهاء من خلصاء جذيمة الأبرش وقد ثار لجذيمة من الزبء قاتلته إذ جدع أنفه وأذنه تظميناً لها، فسهل له ذلك الانتقام منها (الديوان ص ٩١)، وأشرافه: الأنف والأذن.

(٤) البطر: قلة احتمال النعمة وكفرها والطغيان بها، وكراهية الشيء من غير أن يستحق كراهة، المحبور: السعيد المنعم، والأغراب: كثرة المال (الديوان: ٩١).

(٥) الفوزة: الظفر بالنعمة، وأحرز: صان، والمعنى: تريت في إحراز النعمة عندك إلى أن فزت بها فصنت عرضي من الشتم والذم.

(٦) كظه الأمر: غاظه وكربه. (٧) أودى: هلك.

(٨) الظنة: الشبهة، القسم: الشك.

(٩) البر: الصادق، الكثير الإحسان، وأراد بالرب: النعمان.

إِنَّه رَبِّي لَوْلَا تَدَارُكُهُ الْمُدُّ سَلَكَ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ سَاءَ الْعَذِيرُ^(١)
 خَصَّه اللَّهُ وَارْتَضَاهُ لَمَا قَدْ
 مَلِكٌ يَقْسِمُ الْخَزَائِنَ وَالذَّمَّ سَةَ قَدْ رَدَّهَا وَكَادَتْ تَبُورُ
 عَالِمٌ بِالذِّي يُرِيدُ نَقِيَّ الصِّ ذَرِ عَفُ عَلَى جُثَّاهُ نَحُورُ^(٢)

* * *

ويطرح الأصمعي نموذجاً شعرياً في الغزل^(٣) يجد فيه جمالاً وإحساناً بما تضمنه من عفاف المحب، وقناعته بالنظرة، وتصون المحبوب بالتأني، بما يدل على اتجاه الأصمعي الخلفي في الانتخاب والرواية بعيداً عن معيار الفحولة من غير حيف على معطيات الفن والجمال.

روى الشريف المرتضي قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الكاتب قال: أخبرنا ابن دريد قال: أنشدنا أبو حاتم قال ابن دريد وأنشدنا عبد الرحمن - يعني ابن أخي الأصمعي - عن عمه، عن الحسين بن مطير الأسدي^(٤)، وقال عبد الرحمن، قال

(١) الغدير: الحال.

(٢) على جثاه نحور: كناية عن تدينه. والجثا: تراب كان يجمع ويجعل عليه حجارة وينحر عليها للأصنام. (الديوان ٩٢ نقلاً عن حاشية أمالي المرتضي).

(٣) من مرويات الأصمعي في الإحسان من الشعر الجاهلي قصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري «بسّطت رابعة الجبل لنا...» وقد فضلها بقوله: «كانت العرب تفضلها وتقدمها وتعدها من حكمها» وكانت في الجاهلية تسميها اليتيمة لما اشتملت عليه من الأمثال. (الأغاني: ١٠٢/١٣).

(٤) الحسين بن مطير بن مكمل مولى لبني أسد بن خزيمة ثم لبني سعد بن مالك، وكان جده مكمل عبداً فأعتقه مولاه، وقيل بل كاتبة، وهو من مخزومي الدولتين الأموية والعباسية، شاعر متقدم في القصيد والرجز، وكلامه يشبه مذاهب الأعراب وأهل البادية. وقد على معن بن زائدة لما ولي اليمن فمدحه، وكان أبو عبيدة معجباً بشعره. (الأغاني ١٦/١٧-٢٥).

عمي : لو كان شعر العرب هكذا ما أثم مشدده^(١) :

ألا حَبَّ بالبيت الذي أنت هاجرته
لأنك من بيتٍ لعيني مُعْجَبُ
أصدُّ حياءً أن يَلَجَّ بي الهوى
وفيك حبيبُ النفسِ لو تستطيعُهُ
فإن آتِه لم أنجُ إلا بِظَنَّةٍ
وكان حبيب النفس للقلب واتراً
وإن تكن الأعداءُ أحموا كلامه
أحبك يا سَلْمَى على غير ريبَةٍ
ويا عاذلي لولا نفاسَةٌ حُبِّها
بِنَفْسِي من لا بُدَّ أني هاجرُهُ
ومن قد لحاهُ الناسُ حتى اتقاهمُ
أحبُّك حُبًّا لن أعنَّفَ بَعْدَهُ
لقد ماتَ قبلي أولُ الحبِّ فانقضى
كلامُك يا سَلْمَى وإن قَلَّ نافعِي
ألا لا أبالي أيُّ حيٍّ تحمَّلوا

(١) الشريف المرتضي : أمالي المرتضي ١ / ٤٣١-٤٣٢ وفي أمالي القالي ١ / ١٠٨ نسبت الأبيات لعبد الله بن الدمينه، وفي معجم الأدباء ٤ / ٩٩-١٠٠ نسبت للحسين بن مطير.

(٢) التلماح : اختلاس النظر.

(٣) لج به الهوى : وقع في لجهته، واللجة في الأصل معظم الماء، والمقصود : الخصومة من العتاب وغيره.

(٤) ناطه به : علَّقه به، والجرائر : جمع جريرة وهو الذنب.

(٥) الواتر : القاتل.

(٦) لحاه : آذاه بالقول.

(٧) ثمد البرقاء : موضع بالجزيرة، والثمد في الأصل : الماء القليل.

ولعل الأصمعي نظر في القصيدة إلى الفيض المتدفق من مشاعر النبل وأحاسيس
الطهر والنقاء، فقد أبدى الحسين بن مطير حرصاً شديداً على محبوبته، فهو يرغب
في وصالها إلا أن خشية التماذي في الهوى تصده عن ذلك فضلاً عن عاذل عدو
يحاذره، فيحرص أشد الحرص على النجاة منه بظنة يعميها عليه إذا ما غلبه الهوى
فقصدها زائراً.

وعلى الرغم من أن الخلوة بالمحبيب أمنية لدى الحسين بن مطير إلا أنه يفضل
الحرمان على المواصله، لأنه مدرك أن تباريح الشوق خير من المجاورة ومباعدة
ديمومة الحب والهوى:

وفيك حبيب النفس لو تستطيعه لَمات الهوى والشوق حين تجاوره

ولم يحل جفاء المحبوب بسعي الوشاة والأعداء دون بقاء الشاعر على عهده له،
وإخلاص المودة لحيبه، لأن حبه نفيس نقي، عف السريرة، ليس فيه ريبة أو أذى له:

وإن تكن الأعداء أحموا كلامه علينا فلن تحمي علينا مناظره
أحبك يا سلمى على غير ريبة ولا بأس في حُبِّ تعفُّ سرائره
ويا عاذلي لولا نفاسة حُبِّها عليك لما باليتُ أنك خابره
بنفسي من لا بُدُّ أني هاجره ومن أنا في الميسور والعُسْرِ ذاكره

وإخلاص الحسين بن مطير في حبه ساقه إلى الإحساس بالتفرد بين العاشقين،
ولذلك فهو يرفض أن يعنفه أحد، أو أن يلومه لائم، فهو آخر المحبين الذين يرعون
قداسة الحب وطهره:

أحبك حباً لن أعنف بعده محباً ولكني إذا ليمَّ عاذره
لقد مات قبلي أول الحب فانقضى ولو مت أضحي الحب قد مات آخره

على أن الشاعر لم يستأثر بهذه المشاعر دون محبوبته، بل أشركها في حذر

الناس، وخوف السمعة، ومباعدة الريبة بقلة الكلام:

ومن قد لحاه الناس حتى اتقاهم بيغضي إلا ما تجنُّ ضمائره
كلامك يا سلمى وإن قل نافعي ولا تحسبي أنني وإن قل حاقره

بذلك كان الحسين بن مطير ذا مروءة في حبه، عفيفاً في عشقه، مقتصداً في تصويره لأحاسيه، يقول الشريشي: «وأما أهل المروءات والتصاون فغايتهم إعلام المحبوب بشأنهم، وكتمه عن الناس، وذلك شديد، ولا يقوم به إلا من كمل عقله»^(١).

وتكتسب مرويات أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب والأصمعي صبغة من الإحسان زائدة على كونها نماذج ذات نسق جمالي، في التعبير عن قضية تتناغم فيها عناصر القصيد ومكونات الفن، ذلك أن هؤلاء الثلاثة ثقات في الرواية متميزون بأنهم أصحاب اتجاه خلقي وسنة، روى البغدادي بسنده عن إبراهيم الحرمي قال: «كان أهل البصرة أهل العربية، منهم أصحاب الأهواء إلا أربعة، فإنهم كانوا أصحاب سنة؛ أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب، والأصمعي»^(٢).

* * *

وأفرد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد باباً للمختار من شعر المولدين رصده لهدفين أحدهما خلقي تربوي، وثانيهما تعليمي سلوكي، فقال: «هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة، يحتاج إليها للتمثل؛ لأنها أشكل بالدهر، ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب»^(٣).

من ذلك قول محمود الوارق^(٤):

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يُحب مطيع

(١) الشريشي: شرح مقامات الحريري ٢/ ٨٧.

(٢) البغدادي: تاريخ بغداد ١٠/ ٤١٨.

(٣) المبرد: الكامل ج ٢ ص ٣. (٤) الكامل: ج ٢/ ص ٤.

وله أيضاً^(١):

يا ناظراً يرنو بعيني راقداً
منيت نفسك ضلّةً وأبحاثها
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
ونسيت أن الله أخرج آدمًا
ومشاهداً للأمر غير مشاهدٍ
طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهُنَّ غَيْرُ قَوَاصِدِ
دركَ الجنانِ بها وفوز العابدِ
منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدٍ

ولصالح بن عبد القدوس قوله^(٢):

إن يكن ما أصبتُ به جليلاً
كلُّ آتٍ لا شك آتٍ وذو
فذهب العزاء فيه أجلاً
الجهل مُعْنَى الْغَمِّ وَالْحَزَنُ فَضْلُ

وللحسن بن هانيء الحكمي المعروف بأبي نواس قوله في الفضل بن الربيع^(٣):

ما من يدٍ في الناسٍ واحدةٍ
نام الكرامُ على مضاجعهم
قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أُمَّنِي
فعفرت عني عفو مقتدرٍ
كيدُ أبو العباس مولاها
وسرى إلى نفسي فأحياها
من أن أخافك خوفاً الله
حلَّت له نِقَمٌ فألغاها

وله أيضاً^(٤):

إليك غدت بي حاجةٌ لم أبح بها
فأرخ عليها سِتْرَ معروفك الذي
ولدغبل بن علي الخزاعي قوله^(٥):

أحببتُ قومي ولم أَعْدِلْ بِحُبِّهِمْ
دَعْنِي أَصْلَ رَحِمِي إِنْ كُنْتُ قَاطِعَهَا
قالوا تَعَصَّبْتَ جهلاً قولَ ذي بَهْتِ
لا بُدَّ لِلرَّحِمِ الدُّنْيَا مِنَ الصَّلَاةِ

(١) الكامل: ج ٢ / ص ٦.

(٢) الكامل: ج ٢ / ص ٦.

(٣) الكامل: ج ٢ / ص ٧.

(٤) الكامل: ج ٢ / ص ٩-١٠.

(٥) الكامل: ج ٢ / ص ٩.

فاحفظ عَشِيرَتَكَ الْأَذْنِينَ إِنَّ لَهُمْ
قَوْمِي بِنَوْمِ مَذْحَجٍ وَالْأَزْدُ إِخْوَتُهُمْ
تُبْتُ الْحُلُومَ فَإِنْ سُنْتُ حَفَائِظَهُمْ
لَا تَعْرِضَنَّ بِمَرْحٍ لَامِرِيءٍ طَبِينٍ
فَرَبٌّ قَافِيَةٌ بِالْمَرْحِ جَارِيَةٌ
إِنِّي إِذَا قَلْتُ بَيْتاً مَاتَ قَائِلُهُ
ولأبي العتاهية قوله (١):

يَا مَنْ يَعِيبُ وَعَيْبُهُ مُتَشَعِّبٌ
لِلَّهِ دَرْكٌ كَيْفَ أَنْتَ وَغَايَةٌ
وله أيضاً (٢):

طَوْتُكَ خَطُوبٌ دَهْرَكَ بَعْدَ نَشْرِ
فَلَوْ نَشَرْتُ قَوَاكِ لِي الْمَنَايَا
بِكَيْتِكَ يَا أَخِي بَدَمَعَ عَيْنِي
كَفَى حَزْناً بِدَفْنِكَ ثُمَّ إِنِّي
وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ

قال المبرد: «وأشند منشد من الأبيات المنفردة القائمة بأنفسها»: (٣):

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهُوَى قَادَكَ الْهُوَى
وَمِنْهَا قَوْلُ ابْنِ وَهَيْبِ الْحَمِيرِيِّ:
وَإِنِّي لِأَرْجُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنَّي
وَقَالَ أَشْجَعُ السَّلْمِيِّ:
رَأَيْ سَرَى وَعَيُونَ النَّاسِ رَاقِدَةٌ
إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالٌ
أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ صَانِعُ
مَا أَحْرَ الْحَزْمَ رَأَيْ قَدَّمَ الْحَذْرَا

(١) الكامل: ج ٢/ ١٠.

(٢) الكامل: ج ٢/ ١١.

(٣) الكامل: ج ٢/ ٨٧.

وقال آخر:

فله مني جانب لا أضيِّعُهُ وللهو مني والبطالة جانبُ

وقال آخر:

فلو عاب نفسي غيرُ نفسي لَسُوْتُهُ فكيف ونفسي قد أتت ما يعيها

وقال آخر:

يرى فلتاتِ الرأي والرأيِ مقبَلُ كأنَّ له في اليومِ عيناً على غدِ
وعلى الرغم من أن هذه المرويات منتخبات محددة الغاية في الحكمة والتعليم،
وأنها ليست عالية الشرف والدرجة في التصوير والتعبير؛ إلا أنها تعطي دلالة على أن
الإحسان ليس مقصوراً على الشعر القديم دون الحديث، ولا على من عرف بقوامة
الاتجاه، وانضباط السلوك، بل قد يقع هذا وذاك في شعر من شهر بخوارم المروءة
من فسق ومجاهرة بمعصية.

* * *

ومن مرويات الإحسان عند رواة الشعر في الكوفة ما رواه أبو علي القالي
(ت ٣٥٦هـ) قال: حدثنا أبو بكر الأنباري رحمه الله قال: حدثنا عبد الله بن خلف
قال: حدثنا محمد بن أبي السرى قال: حدثنا الهيثم بن عدي قال: كنا نقول بالكوفة
إنه من لم يرو هذه الأبيات فلا مروءة له، وهي لأيمن بن خريم الأسدي^(١):

وَصَهْبَاءُ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفُفْ بِهَا حَنِيفٌ وَلَمْ تَنْغَرْ بِهَا سَاعَةً قَدْرُ^(٢)
وَلَمْ يَحْضُرِ الْقَسُّ الْمُهَيْمِمْ نَارَهَا طُرُوقاً وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَى طَبْخِهَا خَبْرُ^(٣)

(١) أيمن بن خريم بن فاتك من بني أسد، أسلم ووالده خريم يوم الفتح، فيكون لأيمن بذلك
صحبة، وكان أبوه خريم قد صحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه بعض الأحاديث، وكان
في أيمن برص، وكان أثيراً عند عبد العزيز بن مروان. (انظر الإصابة ١٠٩/٢ والأغاني ٢١/
٨٥).

(٢) الصهباء: الخمر، أو المعصورة من عنب أبيض، والحنيف: المسلم، ونگرت القدر: غلت.
(٣) المهيمم: الذي يقرأ بصوت خفي، والطروق: الحضور ليلاً.

أتاني بها يحيى وقد نمتُ نومةً وقد غابتِ الشعري وقد جَنَحَ النَّسْرُ^(١)
فقلت اغتبقها أو لغيري فاسقها فما أنا بعد الشَّيبِ وَبِكَ والخمْرُ^(٢)
تَعَفَّتْ عنها في العُصورِ التي خَلَّتْ فكيفَ التَّصابي بعدما كَلَأَ العُمُرُ^(٣)
إذا المرءُ وَفَى الأَرْعِينَ ولم يَكُنْ له دونَ ما يأتي حياءً ولا سِتْرُ
فَدَعُهُ ولا تَنفَسَ عليه الذي ارتأى وإن جَرَّ أسبابَ الحياةِ له الدُّهْرُ^(٤)

وهكذا فإن مرويات الإحسان لم تكن قصراً على بيئة اللغويين في البصرة دون الكوفة، غير أن في الإشارات السابقة بعض تنبيه على اهتمام رواة البصرة بالإحسان وارتباطهم بالتوجه الخلفي في الرواية.

وهكذا أيضاً تلاحم مقياس الإحسان في التربية ومعيار الفحولة والبداءة في الاحتجاج والاستشهاد، فمن قعد به عصره عن ذلك الفضل قام به أدبه وخلقه، ومن تأخر عن فصاحة أهل الوب، تقدم بإحسان أهل المدر والحضر، وبذلك يتكامل المنهج عند أهل اللغة في حرصهم على الإسلام، فكما أنهم كانوا أوفياء لكتاب الله بطلب نقاء اللغة وأصاله انتمائها، فقد كانوا أمناء على نظافة المجتمع الإسلامي بتربية أخلاق أبنائه وسمو حضارته.

-
- (١) والشعري: نجمان في السماء أحدهما الشعري الغميصاء، والشعري العبور، وهما أختا سهيل.
(٢) الاغتباق: شرب العشي، وبك: وبلك.
(٣) كلاً العمر: قال أبو علي: انتهى إلى آخره، ويقال: بلغ الله بك أكلاً العمر: أي آخره.
(٤) ارتأى: افتعل من الرأي، وتنفس: تحسد.